تأملات طبيبة حين أصبحتْ ابنةَ مريض

د. حسان شمسي باشا

هناك فرقٌ كبير بين أن تقف بجوار سرير المريض مرتديًا المعطف الأبيض.. وبين أن تجلس بجواره ممسكًا بيده.. تنتظر خبرًا يطمئن قلبك.

هذا هو الدرس الذي ترويه طبيبة القلب الأمريكية أنورادا لالا..التي قضت سنوات طويلة تعالج المرضى.. ثم وجدت نفسها فجأة في الجانب الآخر من السرير.. لا بصفتها طبيبة.. بل ابنةً لوالد يرقد في العناية المركزة بعد إصابته بنزفٍ في الدماغ.ونشرت ذلك في مجلة Journal of Cardiac Failure تتحدث عن والدها الذي كان رجلاً عرفته بالحيوية والاستقلال.. طبيب قلب لا يهدأ ويعيش حياته بكل تفاصيلها..

لكن لحظةً واحدة بدّلت المشهد كله.. سقطَ وأصيب بنزفٍ دماغي.. وأصبحت الأسرة أمام امتحان لم تكن مستعدة له.

تصف الكاتبة أول لقاء بوالدها في العناية المركزة.. وقد أحاطت به الأنابيب من كل جانب.. وجهاز التنفس الصناعي.. والشاشات التي تمتلئ بالإشارات..

مشهدٌ اعتادت أن تراه كل يوم في عملها.. لكنه بدا مختلفًا تمامًا عندما كان المريض هو والدها!

وهنا تبدأ رحلة الاكتشاف..

لقد كانت، وهي الطبيبة، ترى في المستشفى الإجراءات اليومية: سحب الدم..جولات الأطباء.. انتقال الممرضين بين الأسرة.. كانت كلها أعمالًا روتينية لا تكاد تلفت الانتباه.

لكن عندما أصبحت ابنة المريض.. أدركت أن لا شيء هناك روتيني.

كل حركة لها مغزى..وكل قرار قد يغيّر حياة أسرة كاملة..

تقول الكاتبة: إنهم أصبحوا يتعلقون بأصغر التفاصيل.. نظرة من الطبيب.. ابتسامة من الممرضة.. أو شرح هادئ للخطة العلاجية..

ثم تتحدث عن أمور قد تبدو بسيطة.. لكنها كانت تصنع الفارق في تجربة المرض: رائحة الغرفة.. صوت أجهزة المراقبة.. فتح الستائر أو إغلاقها..

وهنا تفرق بين كلمتين:العلاج والشفاء

العلاج هو ما نتعلمه في كليات الطب..إجراءات.. قياسات.. وأرقام.

أما الشفاء فهو شيء آخر..أن يشعر المريض أنه ليس رقمًا في السرير السابع.. بل إنسان له قصة وله خوف.. وله أسرة تنتظر معه.

فالشفاء يولد عندما يجتمع العلم مع الرحمة.. والخبرة مع الإصغاء..

وتختم الكاتبة بأن والدها بفضل الله ثم بفضل الرعاية الطبية أخذ يتحسن يومًا بعد يوم.

لكن المريض الحقيقي الذي خرج مختلفًا من تلك التجربة لم يكن والدها وحده..

بل كانت هي أيضًا!

لقد عادت إلى مرضاها بعينين جديدتين..

لم تعد ترى فقط نتائج التحاليل..ولا صور الأشعة.. ولا مخططات القلب..

أصبحت ترى (الإنسان) الذي يرقد أمامها !